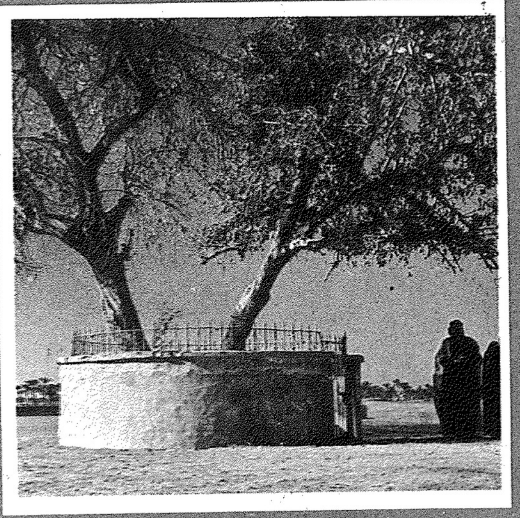
تراث الإنسانية

البحث عن اليقين

لجون ديوى

د. أحمد فؤاد الأهوانى





الهيئة
المصرية
العامة
كتاب



البحث عن اليقين

لجون ديوى

د . أحمد فؤاد الأهوانى



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

البحث عن اليقين
لجون ديوى
أحمد فؤاد الأهوانى

١ ـ سيرته

فيلسوف أمريكا بلا منازع ، والناطق بلسان مذهبها الفكرى فى النصف الأول من القرن العشرين ، والمعبر عن اتجاهاتها العقلية فى الاجتماع والنفس والتربية والأخلاق والسياسة والفن والفلسفة . فلما توفى سنة ١٩٥٣ لم تجد من يحل محله ، ويشغل مكانه ، ولم يظهر بعده الفيلسوف البارز الذى يمكن أن يقال انه الناطق اليوم بلسان الفلسفة الأمريكية .

ولا يعد ديوى فيلسوف أمريكا وحدها ، فقد ارتفع الى مصاف المفكرين العالميين الذين يعتبر تراثهم ملكا للانسانية كلها ، وسجل اسمه فى تاريخ الفكر الى جانب بيكون وديكارت وليبنتز ولوك وهيوم وبرجسون وغيرهم من كبار الفلاسفة .

ولد فى العشرين من أكتوبر سنة ١٨٥٩ فى فرمونت احدى الولايات الأمريكية ، ويتفق مولده مع ميلاد فيلسوفين

آخرين أولهما هوسرل صاحب المذهب الظاهرى (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨) ، والثانى برجسون صاحب المذهب الحيوى (١٨٥٩ ـ ١٩٤١) . أما فيلسوفنا فصاحب المذهب التجريبى أو مذهب الخبرة ، كما سنبين ذلك فيما بعد . ومن الموافقات العجيبة أيضا أن يقع مولده فى نفس العام الذى نشر فيه داروين كتابه « أصل الأنواع » وهو الكتاب الذى لعب فى حياة ديوى أعظم الأثر ، فقد ساير نظرية التطور العلمى ، وآمن بها ، وطبقها على ميادين النشاط الانسانى كعلم النفس والاجتماع .

أتم ديوى تعليمه الابتدائى والثانوى ، والتحق بجامعة فومونت فدرس اللغتين اليونانية واللاتينية والتاريخ القديم ، والهندسة التحليلية ، وحساب التفاضل والتكامل ، والعلوم الطبيعة والنبات والحيوان ، مع الاهتمام بنظرية التطور التى كانت حديثة العهد وحديث الساعة . وفى آخر سنوات الدراسة تلقى محاضرات فى علم النفس وتاريخ الحضارة . وقد تأثر فى الفلسفة بجمهورية أفلاطون ، وفلسفة أوجست كونت الوضعية ، والمثالية الألمانية وبخاصة فلسفة هيجل التى ظل متبعا لها حتى عدل مذهبه وتخلص منها ، كما بين فى سيرته التى كتبها بعنوان « من المذهب المطلق الى المذهب التجريبى » ومع ذلك فقد اعترف بأن مثالية هيجل قد تركت فى تفكيره رواسب دائمة ، لم يستطع أن يتخلص منها حتى بعد اتجاهه نحو المذهب التجريبى .

وقد كانت رسالته فى الدكتوراه عن « علم النفس عند كانط » نال بها الاجازة سنة ١٨٨٤ ، ولكنه لم ينشر هذه الرسالة قط ، بل حتى لا توجد منها نسخة فى مكتبة الجامعة • ثم عين فى نفس العام مدرسا للفلسفة بجامعة متشجان • وفى هذه المدينة تزوج « أليس تشابمان » التى كانت تعمل مدرسة ، فأثرت فى زوجها ، ودفعته الى هجر الفلسفة القديمة والاهتمام بمشكلات الحياة المعاصرة ، ووجهته نحو التربية التى أصبح فيما بعد فيلسوفها المبرز • وقد أعقب منها ستة أولاد بين ذكور واناث •

وفى متشجان اتصل ديوى بالأستاذ تافتس Tufts فتعاونا على التفكير والتأليف ، وبلغت بهما الصداقة حدا جعل « تافتس » حين نقل الى شيكاغو يطلب ديوى للاشتغال معه فقبل ، وكان ذلك سنة ١٨٩٤ ، وقد أثمر تعاونهما تأليف كتاب « الأخلاق » • ومن الأسباب التى جعلته يقبل الانتقال الى جامعة شيكاغو انضمام قسم التربية الى قسم الفلسفة وعلم النفس ، ذلك أن التربية كانت تشغل تفكيره ، وقد فطن الى أهميتها نظريا وعمليا فى الرقى بالانسان •

أنشأ ديوى فى شيكاغو مدرسة خاصة سماها « المدرسة العملية » واشتهرت باسم « مدرسة ديوى » ، كانت بالاضافة الى تدريس الفلسفة وعلم النفس أشبه بمعمل من معامل الطبيعة والكيمياء • ولم يكن غرضه أن تكون مدرسة « تجريبية » أو « تقدمية » كالحال فى المدارس الحديثة الجارية فى الوقت الحاضر • وبهذه المناسبة ألقى

عدة محاضرات عن صلة التربية بالمجتمع جمعها فى كتاب سماه « المدرسة والمجتمع » طبع أكثر من مرة ·

والى جانب اهتمامه بالتربيــة فى أثنـــاء تدريســه بشيكاغو اتجه نحو نوعين من الدراسة : الأول الأخلاق التى حاضر فيها ثلاث سنوات عن منطق الأخلاق ، والأخلاق الاجتماعية ، والأخلاق النفسانية ، فكانت هذه المحاضرات أساس كتابه المشـــهور «الطبيعة البشرية والســلوك » · والنوع الثانى من الدراسة هو المنطق فأصـــدر فيه كتابا بعنوان « دراسات فى النظرية المنطقية » سنة ١٩٠٣ ، وقد رحب وليم جيمس بهذا الكتاب فاعلن عن مولد مدرســة شيكاغو صـــاحبة الاتجاه البرجماتى الذى يمتـــاز بالنزعة الأداتية Instrumental ، وبهذه النزعة اشتهر ديوى ، وأصبحت عنوانا على مذهبه ·

لم يلبث ديوى أن اختلف مع مدير جامعة شيكاغو حول « المدرسة العملية » فاستقال سنة ١٩٠٤ ، وانتقل الى جامعة كولومبيا الى جانب التدريس بكليــة المعلمين ، واستمر بها الى أن أحيل الى الاستيداع سنة ١٩٣١ ·

تعد اقامته فى كولومبيا أخصب فترات حياته اذ تبلور فيهـــا مذهبــه ، فعدل عن المثـــالية والمذهب المطلق الى التجريبية ، واتجه نحو مذهب واحـــدى لا مذهب كثرة كذلك الذى كان يمثله وليم جيمس · ويتبين هذا الاتجاه من كتابيه فى الفلسفة ، الأول « تجديد فى الفلسفة »

والثـــانى « البحث عن اليقين » · وتخرج على يديه فى كولومبيا كثير من التلاميذ الذين أشاعوا مذهبه من أمثال راندال ، ايدمان ، كلباتريك ، تشايلدز ، هوك ، وغيرهم ، وكتبوا فى التربية والاجتماع والسياسة والفن والأخلاق · وبذلك يعد ديوى صاحب مدرســة بمعنى الكلمة ويدور مذهبه فى هذه النواحى الانسانية من النشاط على فكرة الديمقراطيــة التى يجب أن تسود التربيــة والسياســة والمجتمع · وقد دافع عن الديمقراطية فى عصر أوشكت سيطرة رأس المال أن تعصف بحرية الفرد فيه ، واصطدمت الحريات السياسية والاجتماعية بسلطان أصــحاب المال والشركات الكبرى ، ولذلك رأى أن الديمقراطيــة ليست مفهوما مجردا بمقدار ما تكون متأصــلة فى الفرد نتيجة التربية ·

وقد أفاد ديوى من رحلاته الى الخارج ، فاطلع على ألوان من الثقافات والحضارات والشعوب ، كما استفادت منه البلاد التى ذهب اليها محاضرا · ذلك أنه دعى لالقاء محاضرات فى جامعــة طوكيو عقب الحرب العــالمية الأولى مباشرة ، وبعد كتابه « تجديد فى الفلسفة » ثمرة هذه المحاضرات · كما دعى الى الصين كذلك وبث فيهــا فكرة الأخذ بالتربية الحديثة باعتبار أنها أساس ثورتها التحريرية فى السياســة والاجتماع · وزار تركيــا ســنة ١٩٢٤ ، والمكسيك سنة ١٩٢٦ ، فتضاعف ايمانه بالتربية وسيلة فعالة لاحداث التغييرات الاجتماعية الثورية · وزار روسيا

السوفيتية سنة ١٩٢٨ ، واطلع على ثورتها الجديدة ، وعطف عليها ، وكتب عنها يدافع عن حركتها الاصلاحية • وانغمس بعد ذلك في مغامراتها السياسية واستدعى للفصل في النزاع بين ستالين الذى كان يدعو الى عبادة الفرد وبين تروتسكي الذى كان يفسر المذهب الشيوعى على أساس دولى شعبى • وقد عارض ديوى الستالينية والتروتسكية على السواء لأنهما ضد الديمقراطية التى يؤمن بها •

امتد به العمر حتى بلغ الثالثة والتسعين ، دون أن ينقطع عن الكتابة والتاليف ، وتوفى فى أول يونية ١٩٥٢ •

٢ ـ مؤلفاته

لم يظفر فيلسوف ـ فيما نعتقد ـ بترجمة مؤلفاته الى العربية كما ظفر جون ديوى • فقد ترجمت له الكتب الآتية : (١) **الديمقراطية والتربية** (٢) **تجديد فى الفلسفة** (٣) **البحث عن اليقين** (٤) **عقيدتى الفلسفية** (٥) **عقيدتى التربوية** (٦) **الخبرة والتربية** (٧) **المنطق او نظرية البحث** (٨) **الحرية والثقافة** (٩) **آراء توماس جيفرسون** •

وله كتب أخرى فى طريقها الى الترجمة والنشر باللغة العربية ، وبذلك تكمل معرفة ديوى لدى الناطقين بالضاد ، باعتبار أنه فيلسوف عالمى صاحب مذهب كبير ، وباعتبار أنه ممثل الفلسفة الأمريكية •

سنصنف كتبه تبعا للموضوعات الرئيسية التى طرقها ، ولن نذكر مقالاته المتعددة المنشورة فى مختلف

المجلات الفلسفية مع ذكر السنة التى صدرت فيها الطبعة الأولى لكل كتاب .

(أ) مؤلفات تربوية : عقيدتى التربوية (١٨٩٧) المدرسة والمجتمع (١٩٠٠) ـ الطفل والمنهج الدراسى (١٩٠٢) ـ مدارس الغد (١٩١٥) ـ الديمقراطية والتربية (١٩١٦) ـ الخبرة والتربية (١٩٣٨) ـ التربية فى العصر الحاضر (١٩٤٠) ـ فلسفة التربية (١٩٤٦) .

(ب) مؤلفات نفسية : علم النفس (١٨٨٧) ـ علم النفس والمنهج الفلسفى (١٨٩٩) ـ كيف نفكر (١٩١٠) الطبيعة البشرية والسلوك (١٩٢٢) .

(ج) مؤلفات أخلاقية : الأخلاق (١٩٠٨) ـ الطبيعة البشرية والسلوك (١٩٢٢) .

(د) منطقية ـ : دراسات فى النظرية المنطقية (١٩٠٣) ـ مقالات فى المنطق التجريبى (١٩١٦) المنطق أو نظرية البحث (١٩٣٨) .

(هـ) سياسية : الفلسفة الألمانية والسياسة (١٩١٥) ـ الفردية قديما وحديثا (١٩٣٠) ـ قضية تروتسكى (١٩٣٧) .

(و) دينية : ايمان مشترك (١٩٣٤) .

(ز) فنية : الفن والتربية (١٩٢٩) ـ الفن كخبرة (١٩٣٤) .

(ح) اجتماعية وحضارية : الطبيعة البشرية والسلوك

(١٩٢٢) ـ الجمهور ومشكلاته (١٩٢٧) شخصيات وحوادث (١٩٢٩) ـ الفلسفة والحضارة (١٩٣١) ـ التحرير والحركة الاجتماعية (١٩٣٥) ـ الحرية والثقافة (١٩٣٩) .

(ط) فلسفية : أثر دارون فى الفلسفة (١٩١٠) تجديد فى الفلسفة (١٩٢٠) ـ الخبرة والطبيعة (١٩٢٥) البحث عن اليقين ـ نظرية القيمة (١٩٣٩) المعرفة والمعروف ١٩٤٩ .

٣ ـ مذهبه

المؤلفات المذكورة آنفا شيء يسير بالاضافة الى التراث الضخم الذى خلفه ديوى ، اكتفينا بالاشارة الى أهمها . ويمكن اختزال هذه المؤلفات مرة أخرى والوقوف عند الرئيسية منها التى تعد تراثا خالدا حقا . وهذه هى : (١) الديموقراطية والتربية (٢) تجديد فى الفلسفة (٣) الطبيعة البشرية والسلوك (٤) المنطق أو نظرية البحث (٥) الخبرة والطبيعة ـ الخبرة والتربية ـ الفن كخبرة (٦) نظرية القيمة (٧) البحث عن اليقين .

سنعرض مذهبه من خلال هذه المؤلفات الرئيسية وسنقف وقفة طويلة لتحليل كتابه الذى ذكرناه فى آخر هذه القائمة وهو « البحث عن اليقين » الذى نعده فى نظرنا أعظم كتبه ، وقد قام كاتب هذه المقالة بترجمته الى العربية . وسنكتفي فى عرض مذهبه بالوقوف عند منهجه أو منطقه .

وفى تحليل « البحث عن اليقين » غنية عن الافاضة فى مذهبه فى صفحات مستقلة .

الفلسفة ظاهرة من ظواهر الثقافة الانسانية ، غير منفصلة منها ولا منعزلة عنها ، وصلتها بالتاريخ الاجتماعى وبالحضارة صلة ذاتية ملازمة لهما ، ولقد كانت فلسفة الفلاسفة ولا تزال مرآة تعكس ظروف الحياة فى العصر الذى كان يعيش فيه صاحب ذلك المذهب والبيئة التى نشأ فيها. غير أن الفيلسوف كما أنه يصور أحوال زمانه وحضارة أيامه ، فانه كذلك يضرب ببصره الى الأمام فيحاول أن يرسم الطريق الى المستقبل ، وأن يخلق صورة جديدة للمجتمع كما يريد أن يكون عليه . هذه العملية الجديدة تمثل الصراع بين القديم والجديد ، ومن هنا يعد كل فيلسوف ثائرا على زمانه ، غريبا عن أقرانه . كذلك كان سقراط ، وكذلك كان بيكون وديكارت . ولكن قدماء الفلاسفة بغير استثناء — فى نظر ديوى — كانوا يقيمون دعائم مذاهبهم على نظام فكرى خالص يخيل اليهم أنه ثابت كالطود لا يتغير ولا يعتريه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهذا فيما يراه ديوى وهم ، لأن الثبات ليس من طبيعة الحياة المتغيرة على الدوام ، كما أن الانفصال بين عالم أعلى للفكر يعد أسمى من عالم العمل انفصال غير صحيح لأن تيار « الخبرة » الانسانية لا يعرف انفصالا بين فكر وعمل ، ولا بين نظر وسلوك ، وانما هو تيار واحد متجدد سائر الى الأمام يشترك فيه النظر والعمل على السواء .

ومن هنا جاء أن ديوى يسمى فيلسوف « الخبرة » أو « التجربة » ، وكان مذهبه هو التجريبية ، لا بمعنى التجريب العلمى المعروف ، بل بمعنى الخبرة الانسانية التى سنتحدث عنها فيما بعد ، والتى يعد التجريب العلمى جزءا منها ، كما يعد جزءا من منطق ديوى الذى يسميه باصطلاح خاص هو « البحث » ٠

ولما كان منطق الفيلسوف هو المحور الذى يدور عليه مذهبه ، فيمكن أن نتصور مذهب ديوى بثلاث دوائر يحيط بعضها ببعض ، فالدائرة الداخلية هى « البحث » ، لأنها محور الارتكاز ، وتحيط بها دائرة الخبرة الانسانية من علم وصناعة وفن وأدب وأخلاق وسياسة ودين ، ثم تحيط بهذه الدائرة دائرة أشمل هى المجتمع العالمى بما فيه من نظم من جهة صورتها الظاهرة والتى تكون ما يمكن أن يسمى بالمسائل الاجتماعية ، أو الحضارة بأوسع معانيها ٠ فلا عجب أن يقول ديوى فى مقالته عن الفلسفة والحضارة : « انه ليس ثمة فرق نوعى بين فلسفة وبين دورها فى تاريخ الحضارة ٠ فأنت اذا كشفت عن الخاصة الصحيحة والوظيفة الوحيدة فى الحضارة وعرفتهما فقد عرفت الفلسفة نفسها » ٠ فالفلسفة هى الصلة بين هذه الميادين الثلاثة ، المنطق ، والخبرة الانسانية ، والحضارة البشرية ٠

(أ) منطق البحث : عنى ديوى بالمنطق منذ شبابه ، وغاص فى أعماقه ، ووجه اليه سهام نقده ، وخرج بمنطق جديد يمثل فى الواقع وجهة النظر البرجماتية ٠ منذ

أرسطو ـ صاحب المنطق ـ نظر الفلاسفة الى هذا العلم على أنه يبحث فى التصورات والتصديقات ، أى فى المعانى والطريق الموصل اليها وهو التعريف ، والاستدلال من قياس واستقراء ، وكان القياس الأرسطى هو العمدة لأنه مرتب فى هيئة معينة تؤدى الى النتيجة بالضرورة . فالمنطق هو إتساق الفكر مع نفسه ومع قوانينه الصورية ، المستقلة عن عالم الواقع . ولكن ديوى لا يؤمن بهذا الانفصال بين عالم فكرى وعالم واقعى ، بين النظر والعمل ، بل الكل عملية واحدة ، يتدخل العقل فيها ليصل الى حكم معين ونتائج معينة . والأساس عنده هو الواقع ، هو الحياة العملية ، أو باصطلاحه الأخير هو « الموقف » . فليس ثمة تفكير ، ومحاولة للكشف عن نتائج جديدة ، الا اذا واجه الانسان « موقفا » جديدا يبعث فى نفسه الحيرة ، ولا يجرى فيه طبقا لمألوف . وفى هذا الموقف الذى يستوى أن يكون بسيطا أو معقدا ، شخصيا أو عاما ، توجد أمور كثيرة تصبح موضوعات للفكر كالأحداث ، والأفعال ، والقيم ، والمثل العليا ، والأمكنة ، والأشخاص وغير ذلك . والقضايا التى نكونها ليست صحيحة أو باطلة على الاطلاق كما يذهب المنطق القديم الأرسطى أو الرياضى ، مثل قولنا « الماء سائل » أو « النار محرقة » ، فليس الماء سائلا على الاطلاق بل فى ظروف معينة وفى مواقف خاصة . فالمواقف تزخر بالأشياء والأحداث وتكون سياقا متصلا ، هو الذى يسمى الموقف . وحين نحكم على أشياء فى هذا الموقف فانما ذلك لتوجيه السلوك فى نهاية المطاف .

وفى كل بحث يمر التفكير في عدة مراحل هى مواجهة المشكلة ، ثم تحديدها ، ثم فرض الفروض ، ثم تحقيقها . فالطبيب حين يعالج مريضا يواجه مشكلة هى المرض الذى يشكو منه المريض ، وينتقل الطبيب بعد ذلك الى تحديد المشكلة بسؤال المريض عن أعراضه ويفحص أجزاء جسمه ؛ ثم يضع « فرضا » يعتبر أنه علة المرض ، ويحاول ان يطبق هذا الفرض فاذا أثبتت النتائج صحته كان الفرض صحيحا ، والا عدل عنه الى فرض آخر . وهكذا .

والخلاصة أن الانســـان يعيش فى بيئة يواجه فيها مواقف جديدة تحتاج الى تصرف بشكل جديد والى سلوك يتغلب فيه على ما يعرض له من مشـــاكل ، ولأجل ذلك يستخدم الانسان تفكيره فى التعرف على الأشياء الموجودة فى البيئة ، والمعانى التى توحيها تلك الأشياء وتدل عليها ، كما يستخدم ذكاءه فى الوصول الى ما ينبغى من حلول . وما تفكيره ، ومعرفته ، وألفاظه ، ومعانيـه ، وأحكامه ، وتقديره ، واستدلاله سوى « أدوات » يستخدمها فى التغلب على البيئة واخضاعها لسيطرته ، وتعديلها بما يلائم أغراضه « الأداتية » (أو المذهب الوسلى) .

وقد تطور ديوى بمنطقه فسماه مذهب العمليـات أو الاجراءات Operationalism ، ذلك أن الأداتية تدل على العلاقة بين الوسائل والنتائج ، واتخاذ الألفاظ والمعانى والتفكير والذكاء أدوات للحصول على النتائج المطلوبة . أما العملياتيــة فانها تدل على الشروط التى يكون فيهـا

موضوع التفكير صالحا لاستخدامه وسيلة سـواء أكانت تلك الوسيلة متصورة أم قائمة بالفعل لتعديل النتائج وهو الغاية من البحث · على الجملة المنطق الجديد أو منطق البحث هو اتباع طرائق واجراءات من شأنها الاستفادة من البيئة وتسخيرها لخدمة الانسان وأغراضه ·

(ب) الخبرة : تمتاز فلسفة ديوى بأنها تطبيق أو محاولة لتطبيق المنهج العلمى على الاجتمـاع والسياسـة والأخلاق ، وهى الميادين الانسانية التى لم يتعرض لهـا السابقون ، وبخاصة وليم جيمس الذى بدأ فى تطبيق هذا المنهج على علم النفس · على الجملة فلسـفة ديوى تطبيق للمنهج العلمى على الأمور الانسانية التى تمتاز « بالخبرة » ، أى معاناة الفرد لها ، فى مقابل الأمور الطبيعية المستقلة عن الخبرة الانسانية · فالطفل الصغير حين يلمس النار بأصبعه يتألم ، ويدرك أن النار محرقة يتعلم من ذلك أن يتجنبها حتى لا تحرقه ، فالقول بأن النار محرقة جزء من الخبرة ليس منفصـلا عنهـا · والخبرة تقوم على فعل وانفعال ، وتأثير وتأثر ، وفهم لما يقع حول المرء ، والاستفادة من ذلك كله فى المستقبل أى البصر بالعواقب · فالخبرة اذن عملية حية ، نامية ، متطورة ، تنمو مع نمو الفرد واطراد تعلمه من الحياة · وهناك خبرة ساذجة ، وخبرة علمية ، وهذه الأخـيرة تقوم على الفهم والادراك ، ومعرفة العلاقـات بين الأشياء ، مما يفيد حقا فى تكييف الفرد لنفسه فى البيئة

التى يعيش فيها والسيطرة عليها فى المستقبل • انها الخبرة التى تقوم على التوجيه لا على مجرد القبول •

وللخبرة جانبان أحدهما مباشر من حيث ملاءمتها للشخص أو عدم ملاءمتها له واستمتاعه بها أو عدم استمتاعه ، وجانب غير مباشر يرمى الى التأثير فيما يأتى من خبرات • والجانب الثانى هو الأهم فلسفيا لأنه يسمح بمتابعة النمو • ومن هنا نادى ديوى بمبدأين أساسيين فى الخبرة هما التواصل والتفاعل • فالتواصل استمرار الخبرة ، سواء عند الفرد أم الجماعة ، فى اتجاه أرقى ونحو غاية بعيدة وهدف مقصود ، كالتاجر الذى يضع نصب عينيه كسب المال ، فيدرس الظروف الخارجية التى تؤثر فى تجارته حتى يستفيد منها فى بلوغ غرضه • فالخبرة ثمرة التفاعل بين الظروف الخارجية والنزعات الداخلية ، ومن هذا التفاعل يحدث ما يسمى « بالموقف » وجوهره العمل على تعديل الظروف الخارجية بما يلائم حاجات الفرد وأهدافه •

والخبرة الحقيقية تستلزم ضربا من التنسيق والتنظيم بين الظروف الخارجية والنزعات الداخلية • وهذا هو الفرق بين الخبرة الحيوانية والخبرة الانسانية والفرق بين خبرة الانسان فى مرحلته غير العلمية وخبرته الموجهة بالعلم والذكاء •

٢ ـ البحث عن اليقين

رأينا أن مؤلفات ديوى كثيرة وكلها فى مرتبة عالية ، ولو سئل هو نفسه عن أفضل كتبه لقال انه « الديموقراطية والتربية » كما سجل ذلك فى سيرته • وقد يذهب البعض الى أن « تجديد الفلسفة » أفضل كتاب له ، أو يذهب البعض الآخر أنه « الطبيعة البشرية والسلوك » ، أو يرى المناطقة أن كتاب « المنطق أو نظرية البحث » أحسنها ، أو المشتغلون بالفن أن « الفن كتجربة » أعلاها ، وهكذا • وهذه كلهـــا أحـــكام تقويمية تعبر عن الميـــل والمزاج والاستحسان الشخصى والذوق الخاص •

اما أنا فالى جانب هذا المقياس الشخصى ، سأضع معيارا آخر هو أثر الكتاب فى الفكر المعاصر ، وفى التيار الفلسفى بوجه خاص ، وقيمة الكتاب من حيث خلوده فى المستقبل من الزمان • وفى تصورى أن كتاب « البحث عن اليقين » الذى ألقـــاه محاضرات ســنة ١٩٢٩ ، هو هذا الكتاب ، وقد نقلته الى اللغة العربية سنة ١٩٥٨ •

يقع الكتاب فى أحـــد عشر فصـــلا ، هى الهرب من الخطر ، وبحث الفلســـفة عن اللامتغير ، والصراع بين السلطات ، وفن القبول وفن التوجيه ، والأفكار فى مجال العمل ، ولعب الأفكار ، وقاعدة السلطة الفكرية ، وتطبيع الذكاء ، وسلطان المنهج ، وبناء الخير ، والثورة الكوبرنيقية •

ليس فى هذه الفصول جديد لم نذكره من قبل عند

عرض مذهبه ، كل ما في الأمر أنه وضع بعض الأفكار التى ينادى بها ، وجمع أطراف الفلسفة فى كتاب واحد ، وتعد الفصول الثلاثة الأخيرة ، وهى سلطان المنهج ، وبناء الخير ، والثورة الكوبرنيقية أروع فصول الكتاب وأهمها وأخلدها . ففى الكلام عن المنهج توضيح لمنطقه وبيان للمنهج العلمى ، وفى الفصل العاشر ، وهو بناء الخير ، عرض موجز عميق لفلسفة الأخلاق والقيم ، وفى الثورة الكوبرنيقية ينادى بثورة جديدة ديوية .

الفصل الأول تمهيد أو مقدمة للفلسفة عامة ، وللمشكلات الفلسفية والسر فى ظهورها على مر الزمان .

ونحن نعلم أن أرسطو بدأ كتابه فى الميتافيزيقا بقوله : ان الانسان كائن مستطلع ، وان حب المعرفة يولد فى المرء لذة طبيعية هى التى تسوقه الى طلبها ، وبدأ ديوى فى كتابه « تجديد الفلسفة » بأن أصل الفلسفة فى الرغبة وفى التخيل ، لأن الانسان يمتاز عن الحيوان بالاحتفاظ بذكرياته الماضية وخبرته السابقة ، وأنه يتخذ من هذه الذكريات رموزا لحياته المقبلة ، كالنار ليست مجرد شيء يحرق ويؤذى من يتعرض له ، بل رمز لمحراب العبادة ، وبذلك يصبح للحياة معنى وتصبح مأساة حقيقية .

وفى كتابه « البحث عن اليقين » يذهب الى الانسان محفوف أبدا بالمخاطر ، وهو لذلك يلتمس الأمن بطريقين ، طريق علمى هو محاولة فهم أسرار الطبيعة وابتكار الأدوات والفنون التي يحمى بهـا نفسه ويسيطر بها على البيئة

الطبيعية من بناء مساكن ، ونسج لباس ، واتخاذ أسلحة يهاجم بها الحيوانات وغير ذلك · والطريق الآخر خيالى وهمى ، يحاول به ن يسترضى القوى التى تحدد مصيره بتقديم التضحية لها ، وعبادتها ، وممارسة الطقوس الدينية والسحرية ، سواء بحركات ظاهرة ، أم بسريرته الباطنة من تقوى واخلاص ·

ولكن الناس رفعوا من قيمة الروحانيات على الماديات التى حطوا من شأنها وأنزلوها منزلة أقل من المعقولات النظرية والروحانيات المجردة ·

ارتمى الناس فى أحضان الروحانيات وظنوا أنها توصلهم الى « اليقين » ، وابتعدوا عن العمل والصنع والفنون اليدوية المتغيرة لأنها لا تبلغ مرتبة اليقين ، ولا يمكن أن تبلغه ، ورتب الفلاسفة على هذا الفصل نظرياتهم فى الوجود والمعرفة والقيم على السواء · هناك وجود ثابت يقينى من وراء هذا الوجود المتغير ، والمعرفة المطابقة لهذا الوجود هى أصدق معرفة ، والقيم الأخلاقية سامية خالدة ينبغى على الانسان أن يرتفع الى مستواها ، وقل أن يستطيع امرؤ أن يبلغها ما دام مرتبطا بهذه الحياة وبهذا الكون · وهكذا ضلت جميع الفلسفات القديمة بسبب هذا الفصل بين الروحانى والمادى ، بين النفس والبدن ، بين المثالى والواقعى ، وليس ثمة من حل للمشكلة سوى الغاء هذا التمييز واتخاذ « الخبرة » أساسا لكل بحث انسانى سواء كان علميا طبيعيا أو أخلاقيا انسانيا ·

ولا شك أن هذه الوجهة من النظر تعد ثورة في عالم الفلسفة . وكل فيلسوف كبير أحدث في الفلسفة ثورة ، فهذا سقراط ثار على السوفسطائيين وعلى مبدأ النسبية والتغير وأرسى قواعد الخير الثابت ، وأنزل الفلسفة من السماء الى الأرض ، أي حولها من البحث في الأمور الطبيعية الى الأمور الانسانية . وسار على منواله أفلاطون ثم أرسطو وسائر الفلسفات القديمة وفي العصر الوسيط ، حتى جاء « كانط » فأحدث ثورة أخرى كبيرة شبهها بالثورة الكوبرنيقية في علم الفلك ، يريد بذلك أنه بدلا من أن تكون الأرض هي المحور الذي يدور العالم حوله ، أصبحت الشمس هي المحور والأرض تدور حولها . وكذلك بعد أن كانت الأشياء الخارجية هي المحور الذي يدور الفكر حوله محاولا معرفته ، أصبح العقل عند كانط هو المحور الذي تدور حوله الأشياء الخارجية ، لأن العقل البشري في نظر كانط مزود بمقولات أولية تطبع المعرفة بطابعها .

انتقد ديوي هذه النظرية الكانطية ، وبين أنها ليست في الحقيقة ثورة ، لأن المعرفة التي كانت في الفلسفة القديمة متعالية في عالم منفصل أسمى من عالمنا ، أصبحت عند كانط متعالية أيضا لأنها انتقلت الى عرش العقل الموجود في الانسان ، وتستمد وجودها منه بالفطرة ، وهي أولية سابقة على التجربة . ولكن عند ديوي ليست المعرفة أولية ، ولا سابقة على التجربة ، بل نابعة من التجربة نفسها ، ومن الخبرة ، وثمرة لها .

وكان اليقين فى المذاهب التقليدية منذ الفلسفة اليونانية حتى كانط بل الى ما بعد كانط ، مستندا الى الحقائق الثابتة الأزلية لأنها موجودة فى عالم أعلى ، وغاية أمل الفيلسوف أن يجتهد ليتطابق معها ، وعندئذ تتم المعرفة ، ويظفر باليقين والاطمئنان العقلى .

والواقع يدلنا على خلاف ذلك ، لأن الحياة طبيعية كانت أم انسانية فى جريان متصل وتغير مستمر ، وعلينا أن نتطابق مع هذا العالم المتغير ، وأن نلتمس منه المعرفة واليقين ، واذا لم يكن اليقين ميسورا فى عالم متغير ، فما علينا الا أن نقنع بالرجحان .

وهذه هى الثورة الديوية التى تطالب بأن نجعل معيار الحكم فى النتائج والثمرات لا فى الأشياء السابقة ، وأن نسعى الى بناء عالم مستقبل بالقصد والتوجيه بدلا من الاعتماد على الماضى الثابت . والجديد فى هذه الثورة هو « التفاعل » المستمر فى مجرى الطبيعة بين ذهن الانسان وبين الأشياء الطبيعية ، أى فى مجرى « الخبرة » . وبدلا من أن يسمى الأداة الانسانية الموجهة لتيار الخبرة المتصل « العقل » طالب بتسميته « الذكاء » ليدل بذلك على المشاركة الفعالة فى توجيه العالم . ولما كانت الفلسفة خلاف العلم وخلاف الفن ، فلها مهمة خاصة بها هى الطبيعة البشرية من جهة أخلاقياتها وسلوكها الاجتماعى . فالمادة التى يشتغل عليها الفيلسوف ويصوغ منها أفكاره هى البشر أطفالا وشبابا وشيوخا ، يأخذ بيد الطفل بالتربية ، ويسمو بالفرد بالمعرفة ، ويتطور بالمجتمع بالعلم .

وما يسميه ديوى فن القبول وفن التوجيه تابع لنظريات الفلاسفة التقليدية فى الوجود والمعرفة ، لأن الوجود الثابت والمعرفة المطابقة لهذا الوجود ، انما تعطينا قبول ما هو قائم . وليس الحال كذلك فى فلسفة الخبرة الديوية ، لأن الأمر ليس مجرد استقبال بل هو توجيه للأحداث من جهة ما للانسان من دور فعال فى الحياة . ولقد كان العلم من عهد قريب يقف عند مرحلة الوصف والتسجيل . أى عند فن القبول ، ولكنه اليوم انتقل إلى دور آخر هو التركيب وتغيير الطبيعة وتوجيهها . مثال ذلك الذرة عرف العلماء سرها ، وهذه مرحلة الوصف والتحليل ، ثم ركبوها فتمت بذلك المرحلة العلمية . ومن هنا كانت روح المنهج التجريبى العلمى قائمة على ثلاث خصائص هى العلانية لا السرية ، ثم توجيه البحث لحل المشكلة المعروضة على بساط البحث ، وأخيرا تكوين مواقف جديدة تختلف فيها علاقة الأشـــياء بعضها ببعضها الآخر .

وليست المعرفة مطابقة بين ذات عارفة وبين موضوع معروف هو الحق الثابت ، بل المعرفة هى المنهج التجريبى نفسه تجرى معه وتتطور كلما تطور ، وينشأ المعروف من الخطوات التجريبية وهى :

١ ــ اعادة الكيفية المشاهدة بالحواس ، وهذه تحدث من تفاعلنا مع البيئة وتكون معرفة غير يقينية .

٢ ــ التمييز بين المعطيات الحسية وبين الأفكار التى تسوقها لتأويلها .

٣ ـ هذه الأفكار أو الفروض ليست ثابتة نهائية بل عرضة للمراجعة وافتراض فروض جديدة ·

٤ ـ المطابقة بين هذه الفروض وبين المعطيات بغية تحسين الفروض وتحقيقها ·

ففي كل مرحلة يتخذ العالم الباحث الأفكار أداة لتوجيه ملاحظات ونظريات ونتائج جديدة · وهذا المنهج كما يطبق على العلوم الطبيعية يمكن كذلك أن يطبق على الانسانيات مثل الأخلاق والدين والاجتماع ، التى تمتاز بالقيم ·

هناك فرق بين حكم الواقع وحكم القيمة ، فالأول يدل على واقعة وجودية كما تقول هذا الشيء حلو أو مر ، أحمر أو أسود ، فهو وصف للواقع قد يكون صوابا ان كان مطابقا له ، أو خطأ ان كان غير مطابق · وحين نصف شيئا بالقيمة فمعنى ذلك أنه يحقق « شروطا » معينة ، وأنه يؤدى « وظيفة » أكثر من مجرد الوجود · فقولنا الورد جميل حكم واقع ، وحين نختار ورودا لتقديمها هدية ، أو وضعها للزينة يكون لها قيمة تحقق شروطا معينة وتؤدى وظيفة ، بناء على الاختيار ، والتوجيه ، والايثار ، والترجيح ، والاستحسان · فالقيمة خاضعة للتفكير الموجه أو التفكير البرجماتى ، كما رأينا فى خضوع الفكر للعلم التجريبى ومنهجه ·

وليست أحكام القيمة ، ومنها المثل العليا الأخلاقية مستمدة من معايير سابقة ومبادىء أولية متعالية ، ولكنها أحكام عن شروط الأمور التى نجربها ونتائجها وكيف يجب أن تنظم تكوين الرغبات والعواطف والمتع ·

واذا طبقنا المنهج التجريبى على أمور الدين والأخلاق والاجتماع وهى الأمور التى تمتاز بالقيمة حدث لها تغيير عظيم أشبه بما حدث فى العلوم الطبيعية ، ولأمر ما نثق في المنهج التجريبي عند ما نطبقه على الأمور الطبيعية ولا نثق فيه عند تطبيقه على الانسانيات ؟ فان قيل اننا لو فعلنا ذلك لتخلينا عن كل سلطة منظمة وعن جميع المقاييس والمعايير ، أجاب ديوى بأن المنهج التجريبى لا يعنى التخبط والسلوك الأعمى بل التوجيه بالمعرفة والذكاء ٠

صفوة القول : اليقين الذى ظن قدماء الفلاسفة بلوغه بطريقتهم التى فصلت بين عالم الحق وعالم الواقع أمر لا يمكن ، وانما الذى فى ميسور الانسان هو أن يبلغ الأمن ، عن طريق السير فى تيار العلم والصناعات التى تحسن أحوال العمران ٠

منتخبات من هذا الكتاب

١ ـ نظرية المعرفة قديمـــا (ص ٤٧ ـ ٤٨ من الترجمة العربية) ٠

لقد صيغت نظرية المعرفة على مثال ما هو مفروض أن يتم فى عملية الابصار ٠ فالشىء الخارجي يعكس الضوء على العين فيرى ٠ وهذا الفعل يضيف اختلافا الى العين والى الشخص صاحب جهاز البصر ، ولكنه لا يضيف شيئا ما للشىء المبصر ٠ فالشىء الواقعى هو الشىء الذى يتربع ثابتا على عرش العزلة كأنه ملك ينظر العقل اليه محدقا فيه ٠

والنتيجة التى لا مناص منها هى القول بنظرية المعاينة فى المعرفة أو نظرية المتفرج • حقا هناك نظريات تذهب الى تدخل النشاط العقلى ، ولكنها احتفظت بالمقدمة السابقة مما ترتب عليه استحالة معرفة الحقيقة الواقعة • فمادام العقل يتدخل فنحن انما نعرف طبقا لهذه النظريات شبها معدلا للشىء الواقع ، أو ظاهرا ما • ومن العسير أن نجد تأييدا أكمل مما تقدمه لنا هذه النتيجة عن السيطرة الشديدة للاعتقاد بأن موضوع المعرفة عن حقيقة ثابتة وكاملة فى ذاتها ، منعزلة عن فعل البحث الذى يشتمل على أى عنصر يحدث التغير •

٢ ـ الفنون الحرة والفنون التكنولوجية (ص ٩٨ ـ ٩٩) •

مر على الانسان حين من الدهر كان يعد « الفن والعلم » فيما يفترض اصطلاحين متكافئين ، ولاتزال بقية من ذكرى تلك الفترة فى تنظيم الجامعات حين يقال : « كلية الفنون والعلوم » • وكان هناك تمييز بين الفنون الميكانيكية والفنون الحرة • كان ذلك التمييز فى بعض جوانبه بين الفنون الصناعية والفنون الاجتماعية ، بين ما يتعلق بالأشياء وبين ما يتصل مباشرة بالأشخاص ، فالنحو والخطابة مثلا ـ عندما نبحث فى الكلام وتفسير الأدب وفن الاقناع ـ كانا أعلى من الحدادة والنجارة • فالفنون الميكانيكية كانت تتعلق بأمور هى مجرد وسائل ، والفنون الحرة كانت تتصل بأمور هى غايات ، لها قيمة غائية وذاتية ثم عملت الأسباب الاجتماعية

على ازدياد وضوح ذلك التمييز . فعلم الحيل يبحث فى الفنون الميكانيكية ، وهذه أدنى رتبة فى السلم الاجتماعى . والمدرسة التى تعلم فيها هذه الفنون هى المدرسة العملية ، أى التلمذة على الذين برعوا فى الحرفة وأسرارها . والتلاميذ أو الصبيان كانوا يتعلمون بأن يعملوا ، وكان العمل تكرارا روتينيا وتقليدا لأفعال الغير حتى يحصـــل على المهارة الشخصية . أما الفنون الحرة فكان يدرسها أولئك الذين عليهم أن يشغلوا بعض مناصب السلطان ، التى تشغل بعد شىء من الدربة على الحكم الاجتماعى . وكان مثل هؤلاء الأشخاص يملكون الوسائل المادية التى تكفل لهم الفراغ ، ويشغلون المناصب التى تحتاج الى شرف خاص وصدارة معينة ، وفضـــلا عن ذلك فلم يكونوا يتعلمون بالتكرار الميكانيكى وممارسة الأبدان فى استعمال الأدوات والآلات ، بل يتعلمون « فكريا » بطريق ضرب من الدراسة يتطلب استخدام العقل لا الجسم .

٣ ـ الغرض من العلم : (ص ١٢٧)

غرض العلم الكشف عن العلاقات الثابتة بين التغيرات بدلا من تعريف الأشياء اللامتغيرة المتعالية على بدلا من اهتمامه بالعلل الغائية . والمعرفة حين تبحث فيما هو قريب لا ما هو نهائى انما تبحث فى العالم الذى نعيش فيه ، العالم الذى نجربه ، بدلا من محاولة الهرب من طريق العقل الى عالم أعلى . والمعرفة التجريبية ضرب من العمل ، وهذا الضرب ككل عمل يقع فى زمان معين وفى مكان معين وفى ظروف خاصة مرتبطة بمشكلة محدودة .

٤ ـ البحث العلمي : (ص ١٢٨)

البحث العلمي يبدأ دائما من الأشياء الموجودة في البيئة مما نجربه في حياتنا اليومية ، من الأشـــياء التي نراها ونتناولها بأيدينا ونستعملها ونتمتع بها ونعانيها · وهذا هو عالم الكيفيات العادى · ولكن بدلا من قبول كيفيات وقيم هذا العالم باعتبار أنها تقدم موضوعات المعرفة مع خضوعها لترتيب منطقى معين ، ينظر البحث التجريبى اليها باعتبار أنها تقدم حافزا للفـــكر · انها مواد المشـــكلات لا حلولها ، وعلينا أن نسعى الى أن تكون موضوعات المعرفة ـ وأول خطوة في المعرفة أن نحدد المشكلات التى تحتاج الى حل ، وتتحقق هذه الخطوة بتعديل الكيفيات الواضـــحة المعطاة ، فهذه الكيفيات آثار وأمور علينا أن نفهمها ، ويتم فهمها بصيغة تولدها · ان البحث عن العلل الفاعلة بدلا من العلل الغائية ، عن العلاقات الخارجية بدلا من الباطنة ، هو الذى يستهدفه العلم ·

٥ ـ اليقين والأمن : (ص ٢٧١ ـ ٢٧٣)

ان شروط الطبيعة وعملياتها كما تولد اللايقـــين ومخاطره تقدم لنا كذلك الأمن من المخاطر وسبل التأمين بازائها · فالطبيعة تتميز بأنهـــا مزيج دائم من المزعزع والثابت ، وهذا هو الذى يعطى الوجود طعما مرا ، اذ لو كان الوجود اما واجبا أو ممكنا ، فلن يكون في الحياة ملهاة أو مأساة ، ولا تكون ثمة حاجة الى ارادة العيش · ان أهمية الأخلاق والسياسة ، والفنون والصناعات ، والدين ، والعلم

كمنهج وكشف ، كل ذلك يستمد أصله ومعناه من وحدة المستقر وغير المستقر ، الثابت والمزعزع فى الطبيعة • ولن نجد خارج الوحدة شيئا يسمى « الأهداف » ، سواء أكانت نهاية أشواط أم كانت أغراضا تنصبها أمام أعيننا • فليس ثمة كون واحد صمد نتجه اليه دون أن يسمح بأى تغير ، أو تسير نحوه الأحداث المقدورة • وليس ثمة تمام عمل ما لم يكن ثمة مخاطرة بفشل ، ولا فشل حيث لا يوجد أمل فى امكان التحقيق •

٦ ـ دعامة اليقين فى الفلسفات القديمة (ص ٢٨٢)

رأينا منذ استهلال هذه المناقشة أن عدم الأمن يولد البحث عن اليقين • وهناك عواقب تنشأ من كل تجربة وهى منبع اهتمامنا بما هو موجود فى الحاضر •

رأينا أن غياب فنون التنظيم جنح بالبحث عن الأمن الى ضروب غريبة من العمل كالطقوس والعبادات وتملق الفكر بالكشف عن النذر بدلا من الدلائل على ما سيحدث • ثم تميز تدريجيا عالمان : أحدهما أعلى يشتمل على القوى التى تحدد مصير الانسان فى جميع الأمور الهامة ، وهذا هو العالم الذى اهتم به الدين • أما الآخر فيشتمل على الأمور الدارجة التى يعتمد فيها الانسان على مهارته الخاصة وما له من بصيرة يملكها بالفعل • وورثت الفلســـفة هذا التقسيم •• ثم التمست الطبقة المفكرة دعامة اليقين وضمانه كما يقدمه الدين فى البرهنة الفكرية على حقيقة أمور العالم المثـــالى •

ومع ذلك فقد زعزعت نتائج العلم الحديث أساس ذلك النظام الذى كان يبدو وطيدا • وأدت هذه النتائج فى ذاتها الى أكثر من ذلك فى الاهتمامات وأنواع النشاط الجديد التى ولدتها الى الفصل بين ما يهتم به الانسان فى هذه الحياة الدنيا وبين الايمان بالحقيقة المطلقة التى كانت تنظم حياته الحاضرة فى تحديدها لمصيره الأقصى الأزلى • وتعد مشكلة اعادة التوحيد والتجاور بين معتقدات الانسان عن العالم الذى يعيش فيه ، وبين معتقداته عن القيم والأعراض التى يجب أن توجه سلوكه أعمق مشكلة فى الحيـــاة الحـــديثة •

٧ ـ أحكام القيمة (ص ٢٩٣)

عندما تعجز نظريات القيم عن تقديم المعونة الفكرية لصياغة الأفكار والاعتقدات عن القيم المناســبة لتوجيه السلوك ، فينبغى أن يملأ هذا الفراغ بوسائل أخرى • فاذا غاب المنهج البصير فهناك التحيز ، وضغط الظروف المباشرة، والمصلحة الشخصية ومصلحة الطبقة والعرف والمؤسسات التى نشأت عرضا فى التاريخ الماضى ، وهذه كلها ليست غائبة ، وهى تميل الى أن تتخذ مكان العقل البصير • وهكذا ينتهى بنا الأمر الى قضيتنا الأساسية : أحكام القيمة هى أحكام عن شروط الأشياء المحبوبة ونتائجها ، أحكام عما يجب أن ينظم تكوين رغباتنا ومحبوباتنا ومتعنا • لأن أى شىء يقرر مصير تكوينها سيحدد الطريق الأســاسى لسلوكنا الشخصى والاجتماعى •

٨ ـ تطبيق النهج العلمي على الانسانيات (٢٠١)

هذا هو المعنى العام لنقل المنهج التجريبي من الميدان الفني للخبرة الطبيعية الى الميدان الأوسع للحياة الانسانية • فنحن نثق بهذا المنهج في تكوين معتقداتنا عن الأمور التي ليست لها صلة مباشرة بالحياة الانسانية ولكننا لا نثق به في الأمور الأخلاقية والسياسية والاقتصادية • وفي الفنون الجميلة توجد دلائل كثيرة على حدوث تغيير • وقد كان مثل هذا التغيير في الماضي نذيرا ومبشرا بتغييرات في الاتجاهات الانسانية الأخرى ، ولكن بوجه عام تعد فكرة اصطناع المنهج التجريبي في الشئون الاجتماعية وفي الأمور التي يظن أنها أدوم قيمة وأعلاها عند معظم الناس نزولا عن جميع المعايير وكل سلطة منظمة • لكن من جهة المبـدأ لا يعني المنهج التجريبي الفعل العشوائي الذي يجرى بلا هدف ، بل يدل على التوجيه بالأفكار والمعرفة •

٩ ـ الثورة الديوية (ص ٣١٨ ـ ٣١٩)

كان المركز القديم هو الذهن العارف عن طريق جهاز من القوى كاملة في ذاتها انما تفعل فعلها في مادة سابقة خارجية كاملة كذلك في نفسها • أما المركز الجديد فهو التفاعلات غير المحدودة التي تقع داخل مجرى طبيعة غير ثابتة وكاملة بل قادرة على التوجيه نحو نتائج جديدة ومختلفة بتوســـط عمليات مقصــودة • وليست الذات ولا العالم ، وليس النفس ولا الطبيعة هو المركز ، كما أنه ليست الأرض أو الشمس هي المركز المطلق لكون وحيد ،

والصورة الضرورية التى نرجع اليها • وانما هناك كل متحرك لأجزاء متفاعلة يبرز فيه مركز حينما يظهر مجهود لتغيير هذه الأجزاء نحو وجهة خاصة •

وللانقلاب أوجه عدة متداخلة فيما بينها ، ولا يمكن القول ان وجهـا منها أهم من غيره ، لكن تغييرا من هذه التغييرات يبرز متميزا تمييزا عجيبا • فلم يعد الذهن متفرجا ينظر الى العالم من خارج ويجد سعادته القصوى فى بهجة التأمل فى ذاته ، وانما الذهن موجود داخل العالم كجزء من عمليته الجارية على الدوام • وهو يتميز كذهن بأنه حيثما وجد وقع التغير بطريقة « موجهة » ، وبحيث تتجه حركته فى طريق محدود واحد ، أى من المشكوك فيه والمبهم الى الواضح والى المحلول المستقر • فالانتقال التاريخى الذى تتبعنا سجله كان من المعرفة كنظر من خارج الى المعرفة كشريك فعال فى مأساة عالم متحرك على الدوام •

١٠ ــ العلم والفلسفة (ص ٣٢٧ ـ ٣٤٠)

يجدر بنا أن نذكر كلمة أخيرة عن الفلسفة ، فهى كالدين قد دخلت فى نزاع مع العلوم الطبيعية ، أو على الأقل ازداد افتراق طريقها عن طريق العلوم منذ القرن السابع عشر • وأعظم سبب لهذا الشقاق أن الفلسفة زعمت أن وظيفتها معرفة الحقيقة ، مما جعلها منافســة للعلوم لا مكملة لها • واندفعت الفلسفة تطلب ضربا من المعرفة أعلى من المعرفة التى تمدنا بها العلوم • وترتب على ذلك على الأقل فى صور الفلسفة الأكثر نظاما ، أنها اضطرت

الى مراجعة نتائج العلم لتثبت أنها لا تعنى ما تقول ، أو أنها على أى حال تنطبق على عالم من المظاهر بدلا من انطباقها على تلك الحقيقة العليا التى تتجه اليها الفلسفة ٠

وفى ظل هذه الظروف لن تجد هذه الفلسفة أنها تعارض العلم ، وانما هى همزة الوصل ، أو ضابط الاتصال كما يقال اليوم ، بين نتائج العلم وضروب الأفعال الاجتماعية والشخصية التى بها تتحقق الممكنات ونشقى فى سبيلها ٠ أما الدين الذى ينقطع الى الالهـــام ويمجد الاحســـاس بالامكانيات المثالية المتعالية عن الواقع فسيجد نفسه وقد وقفه أى كشف علمى عند حده ٠ لأن كل كشف جديد سيفتح بابا جديدا ٠ ستجد مثل هذه الفلسفة أمامها ميدانا واسعا من النقد ٠ ولكن ذهنها الناقد سينصب على سيطرة التحزب ، والمصلحة الضيقة ، والعرف المألوف ، والسـلطة الصادرة عن مؤسسات منعزلة عن الأهداف الانسانية التى تخدمها ٠ وهذه الوظيفة السلبية للفلسفة ليست و٠ مراقبة عمل الخيال المبدع حين يهدينا الى الامكانيات الجديدة التى تكشف المعرفة بالواقع عنها ، ويلقى بمناهج جديدة لتحقيقها فى مجال الخبرة اليومية للبشر ٠

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٩٣٠

ISBN — 977 — 01 — 4402 — 9

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى

خمسة وعشرون قرشا

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

الهيئة